قصص المعجزات

19



معجزة الرزق

بقلم : عبد الحميد عبد المقصود

تصميم ورسوم : عبد الشافى سيد

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

كانتِ السَّيِّدَةُ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ بنْتًا لأحد عُلَماءِ بنى إسْرائيلَ ..

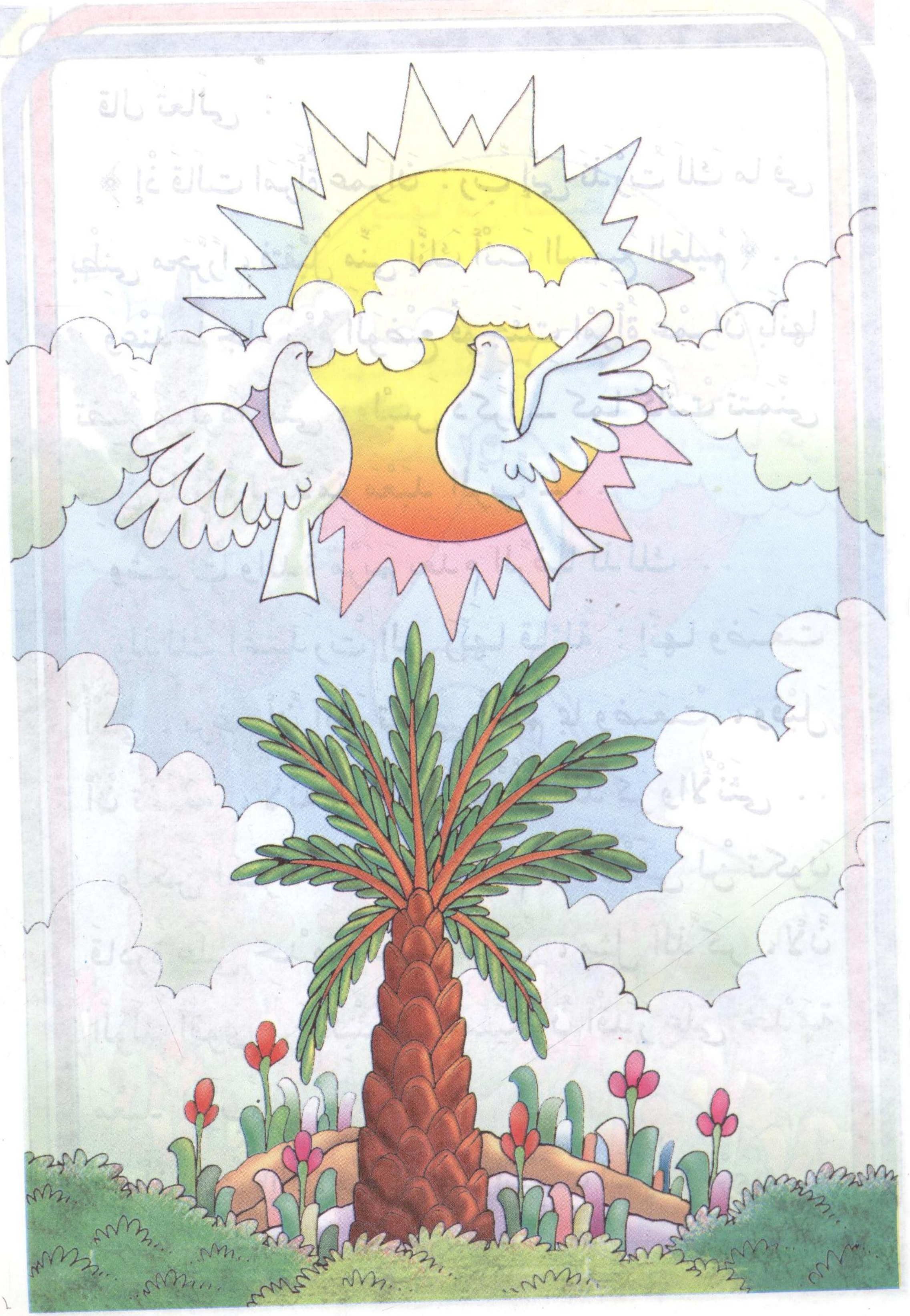
كانَ والِدُ مَرْيَمَ رجُلاً مِنْ أعْظمِ العُلماءِ ، وأَكْثَرِهِمْ تَقْوَى فى زمَانِه ..

وكانتْ والِدَةُ مَرْيَمَ سيِّدَةً مِنْ أتْقَى نِساءِ بنى إسْرائيلَ فى زمَانِها ..

وذاتَ يوْم شَعَرتْ والِدَةُ مَرْيَمَ أنَّها حامِلٌ ، فتضَرَّعَتْ إلى اللَّه تعَالى ، ونَذَرَتْ أنْ تَجْعَلَ الْحَمْلَ ، الَّذى فى بطْنِها خالِصًا لِلّه ، ومُحَرَّرًا لِخِدْمَةِ المعْبدِ ..

وقدْ كانت السَّيِّدَةُ والدَةُ مريَمَ تَأْمُلُ أنْ يَكُونَ الْحَملُ الذى فى بَطْنِها وَلدًا ، حتَّى يَقْدِرَ على العَمَلِ فى خِدْمَةِ معْبدِ الرَّبِّ ...

ودعَتْ زوْجَةُ عِمْرانَ ربَّها طالبَةً منْهُ أنْ يتقَبَّلَ نَذْرَها



قال تعالَى :

﴿ إذْ قَالَت امرَأَةُ عمْرَانَ : رَبِّ إنِّى نذَرْتُ لكَ ما فى بطْنِى محرَّرًا ، فتقبَّلْ منِّى إنَّكَ أنْتَ السَّميعُ العَليمُ ﴾ . .

وعِنْدما جاء يوْمُ الوَضْع فُوجئَت امْرأةُ عِمْرانَ بأنَّها تضَعُ مَوْلودًا أُنْثَى ، وليْسَ ذكرًا ـ كما كانَتْ تتمَنَّى حِينَ نَذرَتْهُ لِخدْمَة مَعْبَد الرَّبِّ ـ . .

وشعَرتْ والِدةُ مريَمَ بعَدَم الرِّضَا لذلك . .

ولذلِكَ اعْتَذَرتْ إلى ربِّها قائلةً : إنَّها وضَعَتْ أُنْثَى ، برغم أنَّ اللَّهَ تعالى أعْلَمُ بما وَضَعتْ ، وقبْلَ أنْ تضَعَهُ ، لأنَّهُ هو الذى يَخْلُقُ الذَّكرَ والأُنْثَى . .

ولكنَّ امَرأةَ عِمْرَانَ تَعلَمُ أنَّ الأُنْثَى لنْ تكونَ قَادرةً علَى خِدْمة مَعْبدِ الرَّبِّ ، مثلَ الذَّكَرِ ، لأنَّ الْوَلَد أقْوى منَ البِنْت ، وسيَكونُ أقْدَرَ على خِدْمَةِ مَعْبدِ الرَّبِّ . .

وأضافتْ والِدَةُ مرْيَمَ إنَّها قدْ أسْمَت ابْنتَها « مرْيَمَ » . .



وقدْ طلبَتْ والِدَةُ مَرْيَمَ مِنْ ربِّها أنْ يحْفظَ ابْنَتَها مرْيَمَ ، وأنْ يحْفَظَ ذرِّيَّتَهَا من الشَّيْطانَ الرَّجيم ..

وقد تَقبَّل اللَّهُ دُعاء والِدَة مريَمَ قَبُولاً حَسَنا ، واسْتَجَاب لِرجَائِها ، فنَشأتْ مريمُ تَنْشِئَةً دينِيَّةً حسَنَةً ، على القِيَم والأخْلاق ، الَّتى ورثَتْهَا عنْ والدهَا الْعالِم التَّقِىِّ ، ووالِدَتها الطَّيِّبَةِ الطَّاهرةِ التَّقيَّة ..

ويَبْدو أنَّ عِمْرانَ ، والِدَ مَريم قدْ تُوُفِّىَ قبْلَ وِلادَتِها ، أوْ تُوُفِّىَ ومرْيمُ لمْ تزَلْ صَغيرةً جدًا ، ولذلِك تكفَّلَتْ والِدتُها برِعايَتها وترْبِيَتها ، حتَّى أصْبحَتْ قادرَةً على البَقاءِ فى المَعْبَد ، ولذلكَ حَمَلتْهَا وتوجَّهتْ بها إلى هُناكَ ..

وفى المعْبَد كان لا بُدَّ لأحَدِ العُلَماء أنْ يَكْفُلَ مَرْيَمَ ويقومَ برعَايتها ، لأنَّها لَيْس لها أَبٌ يرْعَاها ، ويَقومَ بتَرْبيَتِها ..



وَلِذلكَ تسابقَ عُلَماءُ بنى إسْرائيلَ ، على كَفَالَةِ مـرْيَمَ . كلٌّ منهمْ يريدُ أنْ يكونَ له شَـرَفُ تَرْبيـةِ ابْنةِ شَيْخِهِمْ عِمْرانَ . .

أخـذَ كلٌّ واحـدٍ مِنَ العُلماءِ يقولُ : إنَّه أحَقُّهمْ بِرعايةِ مَرْيَمَ ويَعْرِضُ حُجَجَهُ وأسْبابَهُ القويَّةَ .

وكـانَ النَّبىُّ زكَـرِيَّا عليه السلام هو أقْربُ الْعُلَماءِ صِلَةً بِمَرْيَم ، فزَوْجَتُه هى خَالَةُ مَرْيَمَ . .

ولذلك فقدْ قالَ لهم زكـرِيَّا إنّه أحَقُّهمْ جميعًا بكَفَالةِ مرْيَمَ ورِعايَتِها . .

ولكنَّ بَقيَّـةَ العُلَماء ، رفضُوا أنْ يَفوزَ زكريَّا عليه السلام بهذا الشَّرَفِ وحْدَهُ ، منْ دُونِهمْ جميعًا ، واعْتَرَضُوا على ذلك بِشدَّةٍ . .

وكادَ الْخِصامُ والشِّجارُ يقعُ بيْنَ العُلَماءِ ، بِسَبَبِ رَغْبَةِ كُلٍّ منهمْ فى كَفَالَةِ مَرْيَمَ . .



وأَخيرًا اتَّفَقوا جميعًا على حَسْمِ هذا الْخِلافِ بإِجْراءِ الْقُرْعَةِ ، فيما بينهمْ ، فَمَنْ جاءتْ عليْهِ القُرعَةُ ، فَازَ بكَفَالة مَرْيَمَ . .

أَلقَى جميعُ العُلماءِ أَقْلامَهُمْ ، وكلٌّ منْهُمْ يَرْجو أنْ تقعَ عليْهِ القُرْعةُ ، ويفُوزَ بكَفَالةِ مَرْيَمَ ، ولكنَّ زكريَّا وحْدَهُ هو الذى فازَ بكَفَالَتها ، حتَّى عِنْدَما أُعِيدَ إجْرَاءُ القُرْعَةِ لِلْمَرَّةِ الثَّانية والثَّالِثة . .

وهكذا أصْبَحَتْ مَرْيَمُ فى كَفَالة زكريَّا ، فَتَسَلَّمَها ، وقامَ على خِدْمَتِها ورِعَايَتِها ، وتَعْليمها أُصُولَ الدِّين والعِبادَةِ . .

وصارَ لمرْيَمَ رُكْنٌ خاصٌّ فى المسْجدِ تَتَعَبَّدُ فيه . .

وكانتْ مريمُ مُنْذُ صِغَرِهَا وَرِعَةً تَقِيَّةً ، تقْضِى مُعْظَمَ وَقْتِها فى العِبادة والتَّسْبِيح ، وشُكْرِ اللَّه تعالى على نِعَمِهِ عليْها . .



وكانَ زكريَّا هو الْمُتَكَفِّلَ بإحْضارِ الطَّعامِ لها فى مِحْرَابِها . .

وبَدأ زكريَّا عليه السلام يُلاحِظُ على مَرْيَمَ ملاحَظَةً غَرِيبَةً لَفَتَتْ نَظَرَهُ ، وشَدَّتْ انْتِبَاهَهُ . . فكُلَّما دخَلَ زكريَّا الْمِحْرابَ ، ليُقَدِّمَ لمريَمَ الطَّعامَ ، أوْ يَسْألها عنْ حَاجَةٍ مِنْ حاجاتِها ، وجَدَ عنْدهَا طعَامًا وفيرًا ، ورِزْقًا كثيرًا . . طعامًا لمْ يُحْضِرْهُ هوَ لها . .

فى البِدَاية كانَ زكريَّا يتعَجَّبُ مِنْ ذلك ، ويسْأَلُ نَفْسَهُ :

ـ « تُرَى منِ الَّذى يُحْضِرُ لمريَمَ الطَّعامَ ، وهى لمْ تُغَادِرِ المِحْرابَ ، ولمْ أرَ أَحَدًا غَيْرى يدْخُلُ



عليْها الْمِحْرابَ ، ليُقَدِّمَ لها الطَّعامَ ؟ »

ولمْ يجِـدْ زكـريَّا جَـوابًا على سُـؤالِه أبدًا . . ولذلك فإِنّه عنْدما دخلَ على مريَمَ المِحْرابَ ذات يوْم ، ووجَدَ عنْدَها رزْقًا وفيرًا ، سألها قائلاً :

« منْ أيْنَ لَكِ هذا الطَّعـامُ يامـرْيم ؟! مَنِ الَّذى أحْضَرَهُ لَكِ ، وكيف ؟! »

قطعَتْ مريمُ صَلاتَها ، ونظَرتْ إلى زكريَّا مُبْتَسِمَةً ، ثمَّ قالتْ لهُ :

« هذا الرِّزْقُ منْ عنْدِ اللَّه ، فاللَّهُ وحْدَهُ هوَ القادِرُ على أنْ يرْزُقَ منْ يشاءُ بغَيْرِ حِسابٍ »



تعجَّبَ زكريَّا ، وهزَّ رأْسَه قائلاً :

« نِعْمَ الرَّازِقُ ، الَّذى يرْزُقُ منْ يشاءُ بِغيْر حِساب . .

كيْفَ غابَتْ عنِّى هذه الحقيقةَ ، وأنا النَّبِىُّ ؟! »

تأكَّدَ زكريَّا أنَّ اللَّهَ وحْدَهُ هو القادِرُ على أنْ يَرْزُق منْ يشاءُ بِغَيْرِ حساب . .

كانَ زكريَّا عليه السلام فى ذلكَ الوَقْتِ قدْ صارَ شَيْخًا مُسِنًا ، ضعيفَ القُوَّةِ ، وقدْ شابَ شعْرُ رأْسِه ، وكانتْ زَوْجتُه عاقِرًا لا تُنْجبُ ، فلمْ يُنْجِبا ولدًا يَرِثُ عِلْمَ زكرِيَّا ونُبُوَّتَهُ وحِكْمَتَه . .

وكانَ زكريَّا عليه السلام يخْشَى على قَوْمِهِ منْ بَعْدِه . .

كانَ يخْشَى مِنَ المَوالى الَّذينَ يتولَّوْنَ الرِّياسَةَ الدِّينِيَّةَ مِن بعْدِه أنْ يُضيعوا الشَّريعَةَ ، فلمَّا رأى رِزْقَ اللَّه لمريَمَ ، دعا زكرِيَّا ربَّهُ أنْ يَرْزُقَه ولدًا يُورِثُه



الْعِلْمَ والحِكْمَـةَ والنُّبُوَّةَ ، حتّى لا يَضِلَّ قَوْمُه مِنْ بَعْدِه عنِ الشَّريعَةِ . .

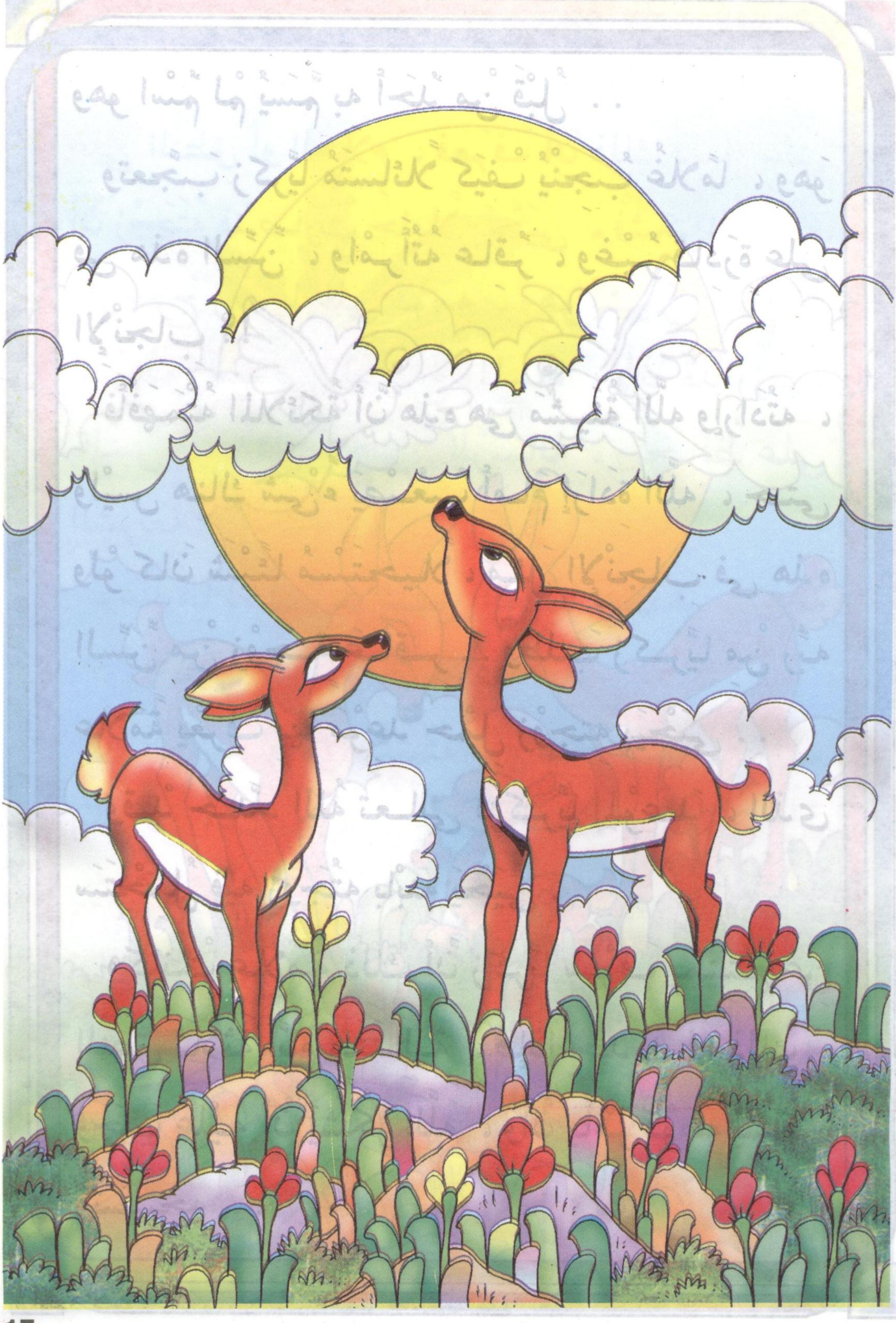
قال زكرِيَّا :

﴿ رَبِّ إنِّى وَهَنَ العَظْمُ مِنِّى ، واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ولَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًا ❁ وإنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى وكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا ، فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًا ❁ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًا ﴾ . .

واسْتجابَ اللَّهُ دُعاءَ نَبِيِّه زكريّا عليه السلام فجاءَتْهُ رحْمَةُ اللَّه ، وهوَ قائِمٌ يُصَلِّى فى المِحْرابِ :

﴿ يازكريَّا إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ، لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًا ﴾ .

نزَلَت الملائكة على زكريّا ، وهو قائِمٌ يُصَلِّى فى المِحْرابِ وبشَّرَتْهُ بأنَّ اللَّهَ تعالى ، قد اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ ، وسَيَرْزُقُهُ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ،



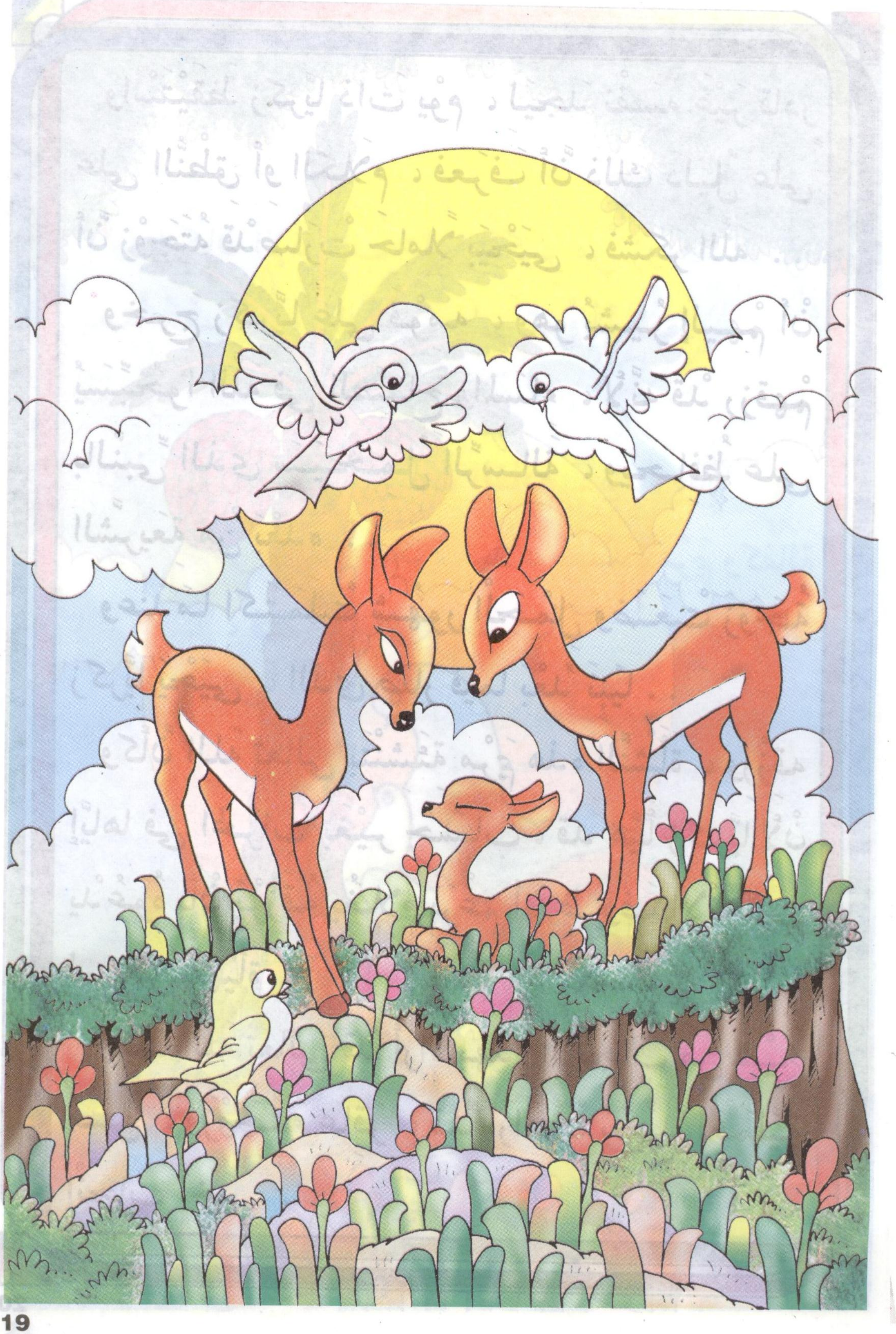
وهو اسْمُ لمْ يُسَمَّ به أحَدٌ من قَبْلُ . .

وتعجَّبَ زكريَّا مُتَسائلاً كيَفْ يُنْجِبُ غُلامًا ، وهوَ فى هذه السِّنِّ ، وامْرأَتُه عاقِرٌ ، وغيْرُ قادِرَةٍ على الإنْجابِ ؟!

فأَفْهَمَتْهُ الملائكةُ أنَّ هذه هى مَشِيئَةُ اللَّه وإرادتُه ، وليْس هناك شئٌ يَصْعُبُ أمامَ إرادَةِ اللَّه ، حتى ولوْ كانَ شَيْئًا مُسْتَحيلاً ، مثْلَ الإنْجابِ فى هذه السِّنِّ من زوْجَةٍ عَاقرٍ . . وطلبَ زكريَّا مِنْ ربِّه علامَةً يعْرِفُ بِها مَوْعِدَ حمْلِ زوْجته بيَحْيَى . .

وقدْ حدَّد اللهُ تعالى لزكريَّا الموْعِدَ ، الذى سَتَحْمِلُ فيه زوجَتُه بابْنِه يَحْيَى . .

وكانتْ علامَةُ ذلك أنَّ زكرِيَّا سوْفَ يَمْتَنِع عنِ النُّطْق ثلاثةَ أيَّامٍ متَتَالية ، فإذا حدَثَ له ذلك ، وجَبَ عليْه أنْ يَشْكُرَ اللَّهَ ، وأنْ يأمُرَ قَوْمَه بشُكْره وتَسْبيحِه . .



واسْتَيْقَظَ زكريَّا ذاتَ يوْم ، لِيَجدَ نفْسَه غَيْرَ قادرٍ على النُّطْقِ أو الكلاَمِ ، فعرَفَ أنَّ ذلك دَليلٌ على أنَّ زوْجَتَهُ قدْصارَتْ حَاملاً بيَحْيَى ، فشكرَ اللَّهَ . .

وخرجَ زكريَّا على قَوْمِه ، وهو يُشيرُ إليهمْ أنْ يُسَبِّحُوا اللَّهَ فى الصَّباحِ والمسَاءِ ، لأنَّه قدْ رزقهمْ بالنَّبىِّ الذى سَيَحْمِلُ الرِّسالةَ ، ويحافظُ على الشَّريعَةَ من بَعْده . .

وعندمَا اكتَمَلَتْ شهُور الْحَمْلِ وضَعَتْ زوجَةُ زكريَّا يَحْيَى ، الذى صارَ فيما بَعْدُ نَبِيًا . .

وكأنَّ اللهَ تعالى بتَنْشئَةِ مريَم هذه النَّشْأَةَ ، ورزَقَه إيَّاها فى المحرَاب بغَيْر حَسَاب ، قد هيَّأَ زكريَّا لأنْ يدْعُوَهُ بأنْ يرْزُقَهُ بغُلام برِغم أنَّ ظروفَ الإنْجابِ لم تكنْ مُهيَّأةً . .

وكأنَّ اللهَ تعالى قدْ أرادَ بهذا الإنْجابِ من شيْخٍ مُسِنٍّ ، وزَوْجَتُهُ عاقِرٌ ، قدْ أرادَ أنْ يُمَهِّدَ لعَمليَّةِ إنْجابٍ آخرَ . .



هذا الإنْجابُ هو إنْجابُ النَّبِىِّ عِيسَى عليه السلام مِنْ أمٍّ فقَطْ ، وبغَيْرِ أبٍ . .

وإذا كانَ الإنْجابُ على الْكِبَرِ من زوجَةٍ عاقرٍ ، يُعدُّ مُعْجِزَةً ، فإنَّ الإنْجابَ من أمٍّ فقطْ ، يُعدُّ مُعْجِزَةَ المعجِزاتِ . .

وهذا هُوَ موضوعُ الكِتابِ القادمِ ، بإذْنِ اللَّه . .

وقد حكَى القرآنُ الكريمُ ميلادَ السَّيِّدَةِ مريَمَ وكفالَةَ زكريَّا لها ، فى قوْله تعالى : فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

(الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة آل عمران)

(تمت بحمد الله)